الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية في حمص منذ الفتح وحتى نهاية عصر بني أميّة

أولاً: الزراعة

١- أصناف الأراضي الزراعية بحمص.

٢- عوامل ازدهار الزراعة.

٣- مصادر المياه في حمص.

٤- المنتجات الزراعية بحمص.

٥- الثروة الحيوانية.

ثانياً: الصناعة

١- عوامل قيام الصناعة.

٢- الثروة المعدنية وأهم الصناعات.

ثالثاً: التجارة

١- أنواع التجارة.

أ ـ التجارة الداخلية.

ب ـ التجارة الخارجية.

٢- طرق المواصلات.

أ ـ الطرق البرية.

ب ـ الطرق البحرية.

٣- الأسواق

٤- النقود وتطورها في حمص.

٥- المشاكل التي واجهت الحياة الاقتصادية في حمص.

obeikandl.com

مقدمة:

الحياة الاقتصادية هي الدعامة الأساسية في تقدم المجتمع وتطوره، واستمرار بقائه وارتقائه، وقد فسرت هذه الدعامة على أنها الفعاليات الزراعية والصناعية والتجارية فيه، وترتبط الفعاليات الرعوية، وتربية الماشية بتلك الفعاليات، وينبغي القول إن الأرض مصدر الثروة، وإن العرب قبل الإسلام كان لديهم زراعة متقدمة فاشتهرت كثير من المناطق ببساتينها، ومراعيها، ومياهها المتدفقة، ومعادنها وثرواتها الباطنية، أضف إلى ذلك الموقع الممتاز بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، الذي ساعد على قيام تجارة مزدهرة ورابحة، وهيأ لتواصل كبير[1].

ولقد اهتم الخلفاء والولاة طوال العهد الراشدي والأموي بشؤون الزراعة في الدولة العربية الإسلامية وكي لا يخرج عن الموضوع سيكون التركيز على بلاد الشام ومنها حمص، فهذه البلاد تحتم عليها جغرافيتها أن تكون حرفتها الأولى الزراعة بما فيها من أنهار، فضلاً عن اعتدال المناخ وصلاحية التربة، وتوفر الأيدي العاملة الخبيرة.

وعندما فتحت حمص اجتهد الخليفة عمر بن الخطاب بترك الأراضي بيد أصحابها مقابل دفع مبلغ من المال "الخراج"، وربما هدفت سياسة عمر بن الخطاب هذه لأن أصحاب الأرض أعرف بها وبزراعتها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لجعل حمص جنداً إسلامياً وقاعدة عسكرية لتوطيد الحكم الإسلامي، كما أن جمع الخراج والجزية يشكل مورداً ثابتاً لبيت مال المسلمين. في الوقت الذي كان فتح حمص وغيرها من المناطق لازال مهدداً من قبل الرومان مما جعل المسلمين في انتقال دائم في الحروب، بالإضافة إلى أنهم اعتادوا حياة الصحراء القاحلة، ومن ثم فإن خبرتهم الزراعية في هذه المناطق كانت بسيطة.

---

١ - زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١١١.

ونتج عن فتح حمص دخول كثير من الأسرى والعبيد في ذمة المسلمين الذين خدموا في الأراضي الزراعية وفي الصناعات المختلفة[1].

غير أن الحال ما لبث أن تبدل بعد أن توطدت دعائم الإسلام في حمص، ودخل عدد كبير من سكانها في الإسلام، وامتزجوا بالمسلمين، ولم يكن هذا الامتزاج اجتماعياً فقط بل تعداه إلى المشاركة في الأمور الاقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة، وقد ساعد على ذلك أن هجرات الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، لم تقتصر على الجنود المحاربين بل شملت أبناؤهم وزوجاتهم. الأمر الذي دفعهم إلى حياة الاستقرار المرتبطة بالزراعة.

وشهدت حمص إبان العهد الأموي نشاطاً زراعياً واسعاً كان وليد الأسس والقواعد التي وضعت في عهد الرسول محمد ﷺ ، والخلفاء الراشدين، في مجال الإقطاع وإحياء أرض الموات، والصوافي وغيرها من الأراضي، وطرق الري ووسائله، فقد أقطع معاوية قطائع عديدة لمن نزل السواحل منذ أن كان والياً على الشام في خلافة عثمان بن عفان، وذلك بغية تحصينها وتعزيز قوتها لمجابهة الرومان. وقد ربط الأمويون في سياستهم الزراعية بين قطع الأرض ومنحها من جهة، وبين إحيائها وزرعها وعدم تحجيرها من جهة أخرى، كما شجعوا الناس على العمل الزراعي[2].

إن فهم السياسة الإسلامية فيما يتعلق بالأراضي المفتوحة يعد ذا أهمية كبيرة، لفهم نظام ملكية الأرض في الإسلام، ومن ثم فهم التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي ارتبطت بظهوره في بلاد الشام، لأن الأراضي الزراعية كانت تشكل المصدر الأساسي للغالبية العظمى من السكان في الشام، كما أن الأموال " الضرائب"، التي تفرض على منتجاتها الزراعية تشكل المورد المالي الأساسي لخزينة بيت المال، ولذلك يجب أن ينظر إلى بعض الإجراءات التمهيدية التي اتخذها الرسول ﷺ والخلفاء من بعده فيما يتعلق بالأراضي التي فتحها المسلمون صلحاً أم عنوة[3].

---

١ ـ مصطفى (شاكر): دول العالم الإسلامي، ج١، ص٧٧.

٢ ـ طهبوب (صلاح): العصر الأموي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٥٠ـ ١٥٣.

٣ ـ إن التحول الكبير الذي عرفه مجتمع صدر الإسلام بدأ مع الفتوحات الكبرى، أي بعد أن

أولاً: الزراعة

١- أصناف الأراضي الزراعية بحمص.

وقد صنفت الأراضي الزراعية وفق ملكيتها على النحو التالي:

الأرض	المفهوم	المصدر أو المرجع
الأراضي العشرية	وهي الأراضي التي بقيت بيد أصحابها بعد أن أسلموا يتصرفون بها كيفما يشاؤون، ويدفعون الضريبة العشرية عنها وهذه الضريبة تسمى الصدقة، ولا يجوز عليها الخراج.	الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات، ص٢٣٣. القرشي، الخراج، ص٢١. أبو يوسف الخراج، ص٦٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٣٤. جوزيف، الحضارة الإسلامية، ص٥٣. زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٢١.
الأراضي الخراجية	وهي الأراضي التي لم يُسلم أهلها لكنهم خضعوا للدولة العربية الإسلامية بموجب معاهدة، وهي أكثر الأراضي شيوعاً وانتشاراً في الشام، وكان صاحبها يدفع ما يفرض عليه من أموال على الأرض أو محاصيلها، وقد أخذت هذه الأراضي تتقلص نتيجة انتقال قسم منها إلى المسلمين بالشراء، الذين أخذوا	الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات، ص٢٣٣. أبو يوسف الخراج،ص٥٧. جوزيف، الحضارة الإسلامية، ص٥٣. زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٢١.

خضعت مناطق زراعية خصبة في الشام للدولة العربية الإسلامية الناشئة، وأدى ذلك إلى بروز إشكالية ملكية الأرض، وما أفرزته من نتائج ذات أثر بعيد في حياة المجتمع العربي الإسلامي، في مرحلة صدر الإسلام، وتمثل ذلك بموقف الخليفة عمر بن الخطاب بإبقاء الأرض بأيدي أصحابها يفلحونها ويزرعونها. الجنجابي (الحبيب): إشكالية ملكية الأرض وأثرها على التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العدد ٣٥-٣٦، السنة الحادية عشرة، آذار - حزيران، ١٩٩٠م، ص٢١٧-٢٢٤. سلوم (انتصار رشيد): الأهمية الاقتصادية والزراعية لجنوب بلاد الشام في العصر العباسي الأول والثاني، (١٣٢-٤٤٧هـ)، (٧٤٩-١٠٥٥م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص٤٠. ٤٥.

	يمتنعون عن دفع الخراج عنها واكتفوا بالعشر، كما أن قسماً منها وصل المسلمين عن طريق الإقطاع من بعض الخلفاء.	
أرض العنوة	وهي الأرض التي انقاد أصحابها عنوة بعدما حاربوا المسلمين، وقاوموهم حتى غُلبوا على أمرهم ولها حكمان: الأول إن أخذت من يد أصحابها ووزعت كغنيمة حرب فيدفع عليها العشر كضريبة لبيت مال المسلمين، والحكم الثاني إن بقيت في يد أصحابها فهي كأرض الخراج.	الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات، ص٢٣٣. زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٢١.
أرض الصوافي	وهي أراضٍ تخلى أصحابها عنها مثل الأراضي التي كانت لكسرى وهرقل وخاصته، وضمت لبيت مال المسلمين، فللخليفة الحرية في التصرف بها عن طريق إعمارها أو جعلها هبة لمن شاء، أو إقطاعها وفرض نوعية الضريبة المناسبة عليها.	الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات، ص٢٣٤. أبو يوسف الخراج ص٥٧. زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٢١.
أرض الموات	وهذه الأراضي بور يهب الخليفة منها لمن يشاء على أن يتم استصلاحها وزراعتها وإلا سحبت من مستصلحها إذا مر عليها ثلاث سنوات دون إصلاحها وزراعتها.	الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات، ص٢٣٤. أبو يوسف، الخراج، ص٦٤. زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٢٢.

وقد غلب تقسيم هذه الأراضي على جميع مدن الشام، ومنها حمص، فقد تزامن فتح حمص مع دخول الكثير في الإسلام من أهل حمص فأصبحوا يمتلكون الأراضي العشرية، كما أن من لم يسلم كان يمتلك الأرض الخراجية وعليه أن يدفع مبلغاً معلوماً من المال لقاء توفير المسلمين له الحماية، "الجزية"، خاصة أن حمص شملت عدداً من أهل الكتاب، أما الذين هربوا من حمص قبيل وبعد الفتح فقد كان حكم أرضهم أرض الصوافي، وقد يقطعها الخليفة أحياناً للفقراء والمحتاجين، أو يتصرف بها وفق ما يراه من تحقيق أفضل النتائج الاجتماعية والاقتصادية، وجلب المنفعة للناس والدولة.

كما تجدر الإشارة إلى أن وجود مثل تلك الأراضي في حمص كان يستدعي الضبط الإداري عن طريق وجود ديوان ينظم جميع حسابات الدولة من دخل وخرج، وهو ديوان الخراج[1]، الذي يشبه ديوان وزارة المالية في وقتنا الحاضر، فهو يقدر كمية الخراج المفروضة على صاحب الأرض، وقد يؤخذ الخراج نقداً "أموال"، أو عيناً "زروع وثمار وغيرها".

وقد ورد اسم ابن أثال النصراني كمتولٍ لديوان الخراج في حمص، في عهد معاوية بن أبي سفيان[2]، كما ورد اسم ابن اسطين النصراني كمتولي الديوان نفسه في عهد هشام بن عبد الملك[3].

وقد اختلف في تقدير خراج حمص فتراوح بين "٣٤٠,٠٠٠" دينار[4]، وقيل "٢٢٠,٠٠٠" دينار، باستثناء الضياع[5]، وقيل "٢١٨,٠٠٠" دينار[6]. وسبب اختلاف مقدار الخراج، يعود لاختلاف تقدير الخراج، فهناك ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها، أو رداءة يقل بها ريعها، وكذلك ما يختص بالزرع من اختلاف أنواع الحبوب والثمار، فمنها ما يكثر ثمنه، ومنها ما يقل، كما أن هناك ما يختص بالسقي والشرب، فخراج ما يعتمد على الأمطار أكثر من خراج ما يعتمد على الري[7].

أما السبب المتعلق بالأرض فيمكن إدراجه على النحو التالي:

بما أن حمص تجمع بين مختلف أشكال التضاريس، وتناسب مختلف المحاصيل والمزروعات، وتتباين فيها الظروف المناخية، وبالإضافة لما كان يسود الشام عامة من

---

١ ـ أبو زيد (شلبي): الحضارة الإسلامية، ص١١١. درادكة (صالح): الخراج والجزية في عهد الرسول ﷺ، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة التاسعة، العددان ٢٩ ـ ٣٠، ١٩٨٨م، ص١٣.

٢ ـ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢٣٢.

٣ ـ الجهيشاري، الوزراء والكتاب، ص٦٠.

٤ ـ ابن خرداذبة، المسالك، ص٧٣. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٧.

٥ ـ اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.

٦ ـ ابن قدامة، الخراج، ص١٨٤. وقيل "أحسنوا إلى أهل الخراج فإنكم لا تزالون سماناً ما سمنوا". ابن حمدون، التذكرة، مج١، ص٣٠١.

٧ ـ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٣٥.

قحط وجفاف وأمراض وأوبئة، ودخول الكثير من الناس في الإسلام، كما أن انشغال الخلفاء الراشدين ومن بعدهم الأمويين بالأزمات الداخلية ممثلة بالثورات الداخلية، وبرد هجمات الأعداء عن بلادهم كالتصدي للروم، ناهيك عن استكمال أعمال الفتح لنشر الدين الإسلامي، كل ذلك كان ينعكس على الزراعة، وربما كان يستدعي ترك الفلاح للأرض للمشاركة في الجندية، مما يقلل أهمية الإنتاج والزراعة، وغيرها من الأمور التي ساعدت على تذبذب الخراج بين الحين والآخر.

كما أن تلك الأرقام الواردة لدى المؤرخين لا تحدد مدة الخراج، فهل تخضع هذه الأرقام لنظام الشهر أو الشهرين، أو السنة، فهو أمر عام غير محدد الأمر الذي أوجد نوعاً من الارتباك في ذكر الأرقام الخراجية، وكذلك لا تحدد إن كان الخراج مقتصراً على حمص أم أنه يشمل حواضرها أيضاً.

وقد وجدت أساليب زراعية بسيطة تعتمد على سقوط الأمطار (بعلية)، وهذه عادة ما تكون في الأراضي السهلية المنخفضة التي تتجمع فيها الأمطار، وتزرع هذه الأرض بعد جفاف المياه، حيث تنثر الحبوب نثراً، أو يستخدم في زراعتها آلة بسيطة تتكون من عصا ذات رأس مدببة تغرس في التربة، ثم تسحب وتزرع الحبوب في الحفرة الصغيرة التي تركها رأس العصا، ثم تغطى بالتراب، وتترك ولا تحتاج إلى مياه. وقد يقوم أصحابها بتنقيتها من الأعشاب التي تنمو مع الحبوب وتمتص الرطوبة منها. وكذلك حمايتها من الماشية، ولا تحتاج هذه الأراضي إلى حراثة أو تسوية، وهذا النوع من الزراعة لا يشكل مورداً اقتصادياً كافياً للمزارعين، لأنه زراعة مؤقتة يرتبط وجودها بوجود الأمطار. أما مناطق الجبال فقد استغلت أيضاً في الزراعة والرعي.

وقد وجدت طرائق كثيرة كانت تستثمر بموجبها الأرض الزراعية في الشام ومنها حمص، وهي: المزارعة، والمساقاة، والضمان، والمغارسة[1]، وقد شجع على

---

١ ـ فالمزارعة هي زرع مساحة معلومة من الأرض لقاء حصة من الإنتاج يتفق عليها، والمساقاة فهي تخص الأراضي المشجرة بحيث يقوم الاتفاق على سقي الأشجار وتطعيمها ورشها مقابل حصة معينة من الثمار يتفق عليها، والضمان هو عقد بين طرفين لقاء مبلغ معين من المال، وينتهي العقد بانتهاء موسم الجني، والمغارسة هو عقد بين مالك الأرض والفلاح الذي يقوم بغرس

ذلك تنوع تربة حمص التي تكونت من رواسب الغرين والجداول البازلتية المتحللة، ومن ثم فهي صالحة للزراعة والرعي بفضل مواردها المائية الوفيرة[1].

٣-عوامل ازدهار الزراعة في حمص

نمت الثروة الزراعية بحمص في حقبة الدراسة نتيجة عوامل طبيعية وأخرى بشرية:

العوامل الطبيعية	العوامل البشرية
تنوع الظروف المناخية[2]	اهتمام الخلفاء والولاة بالزراعة في حمص عملاً بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين، وتشجيع الفلاحين على ذلك.
خصوبة التربة وتنوعها[3]، فهي أرض سهلية منبسطة في أغلبها[4].	الاهتمام بمشاريع الري من خلال حفر الأنهار وشق القنوات، وإنشاء الجسور، "أي أن جزءاً منها أراضٍ مروية والآخر بعلية".
وفرة المياه عن طريق نهر العاصي الذي يحيط به عدة قرى متصلة مع بعضها ببساتين وأشجار وروافد العاصي التي تزود حمص بالفواكه والخضروات[5].	استخدام أدوات زراعية كالمحراث الذي تجره الثيران، والمنجل للحصاد[6].

بغرس الأشجار المثمرة وله لقاء عمله حصة من الشجر والأرض عند نهاية مدة العقد المتفق عليه، إذ يتم انتقال جزء من الأرض إلى الفلاح الذي قام بعملية التشجير. زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٢٠، فالح حسين، الحياة الزراعية، ص٦٥-٧٠. ذكية (محمد ظافر)، الإصلاح الزراعي في محافظة حمص، دراسة جغرافية اقتصادية، جامعة دمشق، ١٩٦٥م، ص١٠-١١.

١ - هوتسما، دائرة المعارف الإسلامية، ج١٤، ص٤٢٦٣.

٢ - انظر المناخ، الفصل الأول.

٣ - ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٢. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٩. الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤. القزويني، آثار البلاد، ص١٨٤، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٣١. وقيل أن ارض حمص تؤثر في تحسن الجسم، وصفاء اللون، ويبدو أن للمناخ علاقة في ذلك. المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٦٦.

٤ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤. أبو الفداء، تقويم البلدان، ٣٣١. ابن جبير، الرحلة، ص٢٠٨.

٥ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤. القزويني، آثار البلاد، ص١٨٤. المقدسي أحسن التقاسيم، ص١٨٥. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٣١. ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١، ص٦٧.

٦ - زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٢٠.

	وفرة الأسواق.
تعدد مصادر المياه الأخرى	شق الطرق لنقل المزروعات.
	استخدام أساليب مكافحة الحشرات الضارة، فقد استخدم سكان الشام عملية دهان سيقان الكروم لمنع الدود من الصعود للشجر[1].
	تسميد الأرض الزراعية بفضلات الحيوانات والرماد والتبن وغيرها[2].

إن العوامل السابقة توضح أن الزراعة متقدمة لوفرة العوامل الطبيعية والبشرية المناسبة، غير أن تلك العوامل لم تتوفر في أنحاء حمص كافة ، وهذا ما يفسر تنوع المحاصيل الزراعية في حمص، واختلاف تقدير خراجها وفق ما يختص بالزرع من اختلاف أنواع الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه، ومنها ما يقل.

وتنقسم النباتات في حمص إلى نوعين: نباتات طبيعية تنمو دون تدخل الإنسان كالأعشاب والحشائش والأشجار الحراجية، ونباتات زراعية تقوم على نشاط الإنسان من زراعة وري وغيرها من الأمور التي تعتمد على عمل الإنسان.

وترتبط الزراعة ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية، فهي التي تحدد المناطق الزراعية ونظراً لتنوع طبيعة حمص من سهول ساحلية وجبال وتلال وصحارى وأودية، فإن ذلك يدل على تنوع التربة والمناخ، وينتج عنه تنوع في المحاصيل الزراعية، كما أن مسألة تذبذب المياه واختلاف وجودها من منطقة لأخرى ساعد على ذلك التنوع.

وتجدر الإشارة إلى وجود مناطق صحراوية شاسعة في بادية حمص وما والاها شرقاً وإن هذه المناطق كانت قليلة الزراعة باستثناء بعض المناطق التي تتوفر فيها الواحات والتي استخدمت بالإضافة للزراعة كمحطة للقوافل التجارية كتدمر مثلاً، فانعكس ذلك على مظاهر التحضر فيها خاصة في مجال الزراعة، فازدهرت الزراعة وتطورت بالإضافة إلى حاجة القوافل التجارية للمؤونة والاستراحة

---

١ ـ فالح حسين، الحياة الزراعية، ص٧٥.

٢ ـ محاسنة، الأحوال الاقتصادية، ص٨٦.

مما أوجد فيها مقومات اقتصادية إضافية، ولتوضيح ذلك فقد ورد لاحقاً جدول يبين أهم المحاصيل الزراعية واختلافها في حمص وبعض حواضرها.

٣-المنتجات الزراعية في حمص وحواضرها

المنطقة	الحاضرة	المنتجات الزراعية	المصدر والمرجع
	حمص	الزيتون والرمان	الواقدي، فتوح الشام، ص٩٩
		الفواكه، خضروات، شجر، زرع.	الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤. الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٣٠٠. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٦.
		الكروم	الحميري، الروض المعطار، ص١٩٨. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٣١.
		كثيرة الزرع والضرع، وأكثر زرع رساتيقها بخوساً أعذاء (دائمة الخضرة)	ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٢. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٣١.
		أشجار كثيرة الأوراق	ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١، ص٦٧.
		الحبوب والخضار بأنواعها والقطن والأرز والشمندر السكري	الخوند، الموسوعة، ج١٠، ص٢٨٦. شيخاني، حمص وخالدها، ص١٩.
		البلوط والصنوبر والسنديان والزعرور والخروب والسرو، والدفلى والبطم وغيرها من الأشجار الحرجية	محاسنة، الأحوال الاقتصادية، ص٨٣. فالح حسين، الحياة الزراعية، ص١١٧.
		قمح وزيتون من السواحل	البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٠.

الحواضر الشمالية	الرستن	تنبت احسن الحبوب وأجود البطيخ والزروع الصيفية	زكريا، جولة أثرية، ص٣١٤.
	حماه	البطيخ والمشمش	فالح حسين، الحياة الزراعية، ص١٠٩.
	شيزر	الرمان	أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٦٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٢٤.
		الفواكه والخضروات والشجر والزروع	شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٣٤٤.
	كفر طاب	الزيتون والرمان والكرمة	الحميري، الروض المعطار، ص٥٠٠.
	معرة النعمان	الزيتون والفستق	الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص١٥٦. ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص١٢٧.
		الفستق	ابن العديم، بغية الطلب، ج١، ص١٢٧.
		الكرمة والجوز	الحميري، الروض المعطار، ص٥٥٥.
		الفواكه	شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٥. الحميري، الروض المعطار، ص٥٥٥. زكريا، جولة أثرية، ص١٨٨.
		المشمش	محاسنة، الأحوال الاقتصادية، ص٧٧.
الحواضر الجنوبية		مشابهة لحاصلات حمص لقربها ولتشابه تربتها وظروفها المناخية	

الحواضر الشرقية	القريتين	أشجار متنوعة	الحموي، المشترك وضعاً، ص٣٤٤.
	تدمر	التين والزيتون، والنخيل وبعض النباتات الطبيعية وشجيرات متنوعة.	أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٨٩. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١١٤.
	أرك	نخل وزيتون	الحموي، معجم البلدان، مج١، ص١٥٣.
	جدر	الخمر	الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص١١٣.
	سلمية	الزعفران	اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.
		بساتين متنوعة عديدة	أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٦٥. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١١٣.
		الكروم	زكريا، جولة أثرية، ص٢٦٨.
الحواضر الساحلية الغربية	أفامية	الزيتون والتين	القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٣٠.
	بلنياس	فواكه وحبوب	الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٤٤. عطوان، الجغرافية التاريخية، ص٥٦.

إن الجدول السابق يبين أهم المحاصيل التي كانت موجودة في حمص، خلال حقبة الدراسة، والتي يمكن تقسيمها لحاصلات غذائية أصلية كالحبوب "القمح والشعير"، والزيتون وهو من النباتات التي تلائم مناخ البحر المتوسط، ومنها سواحل حمص، أما الكرمة "كالأعناب والزبيب، والخمر" فقد لاقت نصيباً من زراعة حمص، وكذلك الحال بالنسبة للنخيل في منطقة الحواضر الشرقية، وكذلك بالنسبة للفواكه ومنها التفاح والفستق، وقد وجدت في حمص حاصلات مجلوبة كالأرز، وقصب السكر، والبطيخ.

كما وجدت الحاصلات الزراعية الصناعية الأصلية والمجلوبة كالقطن والورد لدرجة أن بلاد الشام كان لها شهرة كبيرة بزراعة الأزهار، كما أن هناك زراعات صناعية ثانوية وجدت في حمص كالزعفران الذي جلب إلى بلاد الشام عن طريق الهند، ويستعمل للصباغة والتلوين، كذلك وجدت في حمص الغابات والأحراج ومنها أشجار البلوط والصنوبر والسنديان والزعرور وغيرها، أما المراعي فقد كان لمتاخمة حمص للبادية والواحات أكبر الأثر في وفرة المراعي الطبيعية، بالإضافة إلى وجود الأنهار والوديان وسفوح الجبال[1].

وبذلك فقد أنتجت حمص محاصيل بعلية ومحاصيل مروية، وكان القمح والشعير يمثلان القوت اليومي للسكان، وبذلك لابد من وفرة الطواحين لطحن الحبوب. كما أنتجت مزروعات ذات أهمية تجارية كالقطن الذي اشتهرت به حمص منذ القدم، ويجب عدم إغفال الأشجار المثمرة كالتين، وكان يستفاد من زراعة أشجار الزيتون في الحصول على زيتها كمادة غذائية وكذلك كوقود للقناديل التي تضيء المساجد[2]، وإذا كانت حمص تشتهر بالصناعات النسيجية والحريرية، فلا بد أنها كانت تزرع شجرة التوت للاستفادة من تربية دودة القز عليها، واستخراج الحرير كمادة تجارية، كما أن حمص كانت تستفيد من الأشجار في صناعة الأخشاب لمراكب السفن، وكذلك كوقود للتدفئة والطهي.

الموارد المالية

وعلى الرغم من عدم العثور على نصوص محددة عن الحقوق والواجبات التي فرضت على سكان حمص في حقبة الدراسة، فإنه يفترض أنه قد فرضت على المسلمين الواجبات نفسها التي كانت مفروضة على غيرهم والتي يمكن إيجازها بما يتوافق مع ملكية الأرض وظروف الفتح.

فقد كانت أهم الموارد المالية في حمص بعد الفتح الإسلامي الغنائم والفيء،

---

١ ـ زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٢٨-١٣٧.

٢ ـ فقد كان أبو مريم الأنصاري الحضرمي خادم قناديل جامع حمص في مرحلة معينة من العصر الأموي. الذهبي، الكاشف، ج٢، ص٤٥٩.

والخراج والجزية والزكاة والعشور[1]، حيث سبق توضيحها في ملكية الأرض.

وكانت القاعدة العامة في النظام المالي الإسلامي تقتضي بأن يخصص لكل جند ما يجنى من حواضره لتصرف كرواتب للجند والموظفين، فقد قيل إن رواتب العاملين على دواوين حمص قبل تعريبها في خلافة عبد الملك بن مروان كانت نحو ثمانمائة ألف دينار، وقيل سبعمائة ألف دينار[2]، فضلاً عن الإنفاق على المرافق العامة كإنشاء المساجد والطرق وشق القنوات وغيرها، وما زاد على ذلك كان يذهب إلى العاصمة دمشق للتصرف فيه وفقاً لمقتضيات المصلحة العامة[3]. وكانت مسألة جباية الموارد المالية المختلفة تأخذ بعين الاعتبار الإيسار والإعسار للشخص دون إرهاق له[4].

---

١ ـ فالغنيمة هي ما غنمه المسلمون بالقتال وأخذوه عنوة، أم الفيء فهو ما صولح عليه المسلمون من جزية وخراج، وأما الجزية فمبلغ من المال يدفعه أهل الذمة لقاء حماية المسلمين لهم، وأما الزكاة فهي ما يدفعه المسلم من مال يزكي به نفسه ويطهرها، والفيء والغنيمة مأخوذان من غير المسلمين، وتنقسم الغنائم إلى أربعة أقسام " أسرى، وسبي، وأرض، وأموال"، أما الأسرى فهم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون في يد المسلمين، وكانوا أما أن يقتلوا أو يسترقوا، أو يفدوا أنفسهم بمال أو أسرى أو يمن عليهم بغير فداء، فإن أسلم الأسير سقط عنه القتل وخير بين الوجوه الثلاث. أما السبي فهم النساء والأطفال، ولا يجوز قتلهم إذا كانوا أهل كتاب، ولا يفرق بين الأم وأبنائها، وكذلك كان يؤخذ على المعادن والركاز نصيب من المال قدر بالخمس. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٩٩ـ٢٣٢. بطاينة (محمد): النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين، مجلة دراسات تاريخية،السنة السابعة، العدد ٢١ـ٢٢، ١٩٨٦م، ص١٨ ـ١٩. الخربوطي (علي حسن): تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩م، ص٣٩١. خماش (نجدة): الإدارة ونظام الضرائب في الشام في عصر الراشدين، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، (الندوة الثانية)، تحرير محمد عدنان بخيت، ١٩٨٩م، ص٤٢٥ — ٤٥٥. العيسى (خلود مطلق): نفقات الدولة الإسلامية زمن الخلفاء الأمويين في الفترة (٦٥ . ١٢٥هـ / ٦٨٤ . ٧٤٢م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠٠م، ص٧.

٢ ـ البلاذري، فتوح، ص١٩٧.

٣ ـ سرماني (حنيفة): إقليم الجزيرة منذ الفتح حتى نهاية العصر السفياني (الأموي) (١٧ـ٦٤هـ / ٦٣٨ـ٦٨٤م)، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، قسم التاريخ، ٢٠٠٦م، ص٣٧.

٤ ـ قدامة بن جعفر، الخراج، ص٢٩٥.

٤-الثروة الحيوانية:

عند الحديث عن تربية الماشية، تتوجب الإشارة إلى أهمية الحيوانات ليس فقط من الناحية الغذائية كالاستفادة من لحومها وشحومها وألبانها وأجبانها، وإنما تتعداها إلى المساهمة في صناعة المنسوجات والصناعة الجلدية، وحتى استخدام روثها كوقود للتدفئة، ناهيك عن دورها في الفتوح والحروب كوسيلة للنقل.

ومن الحيوانات المنتشرة في حمص ما كان يتوافق وطبيعة المناخ والتضاريس من جهة وظروف الفتح والتنقل عبر الصحراء من جهة أخرى. فمن الأمثلة على الأولى الحمير[١] والخيول وكان اقتناؤها دليلاً على الغنى، حتى أن الشعراء تغنوا بها[٢]، والأبقار وهي حيوانات تربى في المناطق الزراعية، كما يعتمد عليها في حراثة الأرض ورفع الماء من الآبار، وفي مطاحن الحبوب والزيوت، بالإضافة إلى لحمها وحليبها وجلودها. والأغنام[٣] التي يربيها أهل الحضر والبادية، فهي سلعة تجارية ويستفاد من لحمها وصوفها وحليبها. وذلك لوفرة المراعي الطبيعية، ولوجود المناطق السهلية والجبلية، وهذا يناسب تربية الطيور والحمام والدجاج والنحل لتناسب البيئة الحمصية.

أما الحيوانات التي وافقت ظروف الفتح فهي الجمال، التي تعد مصدر غذاء أساسي للبدو، حيث يأكلون لحمها ويشربون حليبها، وتوفر جلودها ووبرها ملابسهم وفرش خيامهم. وهي وسيلة تنقلهم وسلعة مقايضتهم، وهي مقياس ثروتهم. كما ويمكن للشام عامة أن تنتفع بغنائم الفتوحات إذ استفاد الفلاحون من الجواميس في حياتهم الاقتصادية[٤].

وسبب نهر العاصي الاستفادة من الثروة البحرية كالأسماك، فقد اشتهرت حمص بالسمك المنقول من الفرات إلى بحيرة حمص[٥]، أما أفامية فقد عرفت

---

١ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٨، ص١١٣.

٢ ـ المسعودي، التنبيه والإشراف،ج٢، ص١٩٧.

٣ ـ الواقدي، فتوح الشام، ص٩٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥١.

٤ ـ محاسنة، الأحوال الاقتصادية، ص٨٥.

٥ ـ العمري، المسالك والممالك، السفر ٣، ص٥٣١.

أسماكاً تشبه الحيّات تسمى الإنكليس[1]، كما اشتهرت حماه بوفرة الطيور والحيوانات المتوحشة[2] لكثرة الغابات والأشجار والجبال المناسبة لعيشها.

وربما أن بعض السكان كانوا يقدمون عدداً مما يتوفر لديهم من حيوانات بدل الخراج أحياناً، وهو أمر مقبول لكونه يمثل بدلاً عينياً عن البدل النقدي أو المحصول الزراعي.

وهناك مسألة تتعلق بحشرات حمص، فيروى: "أن حمص مطلسمة[3] لا تدخلها حية ولا عقرب، ومتى أُدخلت على باب المدينة هلكت بالحال، وبها القبة العالية الكبيرة التي في وسطها صنم نحاس على صورة الإنسان الراكب على فرس يدور مع الريح حيث دارت، وفي حائط القبة حجر عليه صورة عقرب، فإذا جاء إنسان ملدوغ أو ملسوع طبع في ذلك الحجر الطين الذي يكون معه ثم يضع الطين على اللسعة فتبرأ للحين"[4]. ومما يؤسف أن هذا التمثال والصورة غير موجودة الآن في حمص لإيضاح الصورة أكثر.

وفي البداية لا اعتقد وجود علاقة بين صورة صنم النحاس وبين الحجر ذي صورة العقرب، فكلاهما مادة خام معزولة عن الأخرى، وأما مسألة دوران صنم

---

١ ـ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٥.

٢ ـ العمري، المسالك، السفر ٣، ص٥٣٤. زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٣٧ـ ١٣٩. وبذلك فقد وجد في حمص أربع أنواع من أجناس الحيوانات صنفت حسب منطقة سكنها وعيشها فمنها ما يعيش في الهواء كالطيور والحشرات ومنها ما يعيش في الماء كالسمك، ومنها ما يعيش في البر كالأنعام ومنها ما يعيش في التراب كالهوام. الدفاع (علي عبد الله): إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص٤٢.

٣ ـ يقال طلسَم الرجل أي كَرَّه وجْهَه وقَطَّبه، وهي دلالة على الكراهية لشدة الريح. ابن منظور(جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري): لسان الميزان، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، دار الكتب المصرية، ١٩٧١م، مج ١٢، ص٣٦٩.

٤ ـ الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٧٤. الحميري، الروض المعطار، ص١٩٨. الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٣٠٣. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٣١. القزويني، آثار البلاد، ص١٨٥. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٢. العمري، المسالك والممالك، السفر الثالث، ص٥٣١ـ٥٣٢.

النحاس الذي يمثل هيئة الإنسان الراكب، فيبدو أنها كانت وسيلة لتحديد اتجاه الرياح، وذلك لخفة مادة النحاس وقدرة الهواء على تحريكها. ولكن ما العلاج الكامن في تلك الصورة التي تحوّل السّم إلى دواء يشفي ويعافي من الموت؟. وهل حقاً أنه لا توجد في حمص حيّات ولا عقارب؟.

ويؤكد العمري صحة الرواية بقوله: "حدثني خلق بهذا، وقد رأيت بعيني، وجربت ما يتعلق بالطين الملصق بالقبة"[1].

يبدو أن الأمر يتعلق بالبيئة التي يعيش بها العقرب والحية، وتحديداً التربة. "وليس بها عقارب ولا حيّات، وإذا أُدخلت الحيّة أو العقرب إليها ماتت"[2]. وعلى ما ذكر فإن التربة الطاردة "للعقرب والحيّة" هي نفسها الشافية للمرض. ويحدد الحموي وسيلة العلاج بقوله: "إذا أُخذ من طين أرضها وختم على تلك الصورة نفع من لدغ العقرب منفعة بينة، وهو أن يشرب الملسوع منه بماءٍ فيبرأ لوقته"[3]. وهو يعني بذلك أن الماء هو الشافي للسّم. وهناك من يحل المسألة بالعلاج النفسي "ومن أخذ طيناً وطبعه عليه نفع من لدغ العقارب بإذن الله فالعمل للطبع لا للطين"[4]. وهناك علاج آخر؛ وهو أن يؤخذ الطين الحرّ ويطبع به على تلك الصورة، وتلقى في الماء حتى يشرب الملدوغ فيبرأ في الحال[5]، أي أن يشرب الملدوغ إبرة (حقنة) من خليط الماء مع الطين فيشفى. إن كل ما سبق يؤكد أن العلاج يتعلق بالتربة، وقد سبق ذكر احتمال تسمية حمص بأنه آرامي وبأنها تعني الأرض اللينة، وهذا يؤكد أن العقرب لا يعيش في الأرض اللينة، ومن شهود عيان من أبناء حمص[6] أكدوا أن حمص خالية تماماً من العقارب، أما الأفاعي فهي قليلة وتعيش في نهر العاصي ونظراً لقضائها وقتاً طويلاً في الماء فإن لدغتها ليست قاتلة. وإن تربة حمص تحتوي عنصر الزنك الطارد للعقارب، وذي

---

١ ـ العمري، المسالك والممالك، السفر الثالث، ص٥٣٢.

٢ ـ ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٢.

٣ ـ الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٣٠٣.

٤ ـ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٤.

٥ ـ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٨٥.

٦ ـ مقابلة مع الدكتور عبد الرحمن البيطار، قسم التاريخ، جامعة البعث، حمص، ٢٠٠٦/١١/٢٨م.

القدرة على مقاومة سم العقرب. ولكن هل أكد العلم الآن هذه القدرة العلاجية لتركيب التربة؟. خاصة أن هذا العلاج كان ينقل من حمص للمدن الأخرى (مَنْ جَبَل من تراب حمص طيناً وألصقه إلى حائط القبة وتركه حتى يجف ثم حمله إلى أي بلاد شاء وألقى منه على عقرب مات)[1].

وقد كتب عامل نصيبين إلى معاوية وهو عامل عثمان على الشام والجزيرة يشكو إليه أن جماعة من المسلمين ممن معه أصيبوا بالعقارب. فكتب إليه يأمره أن يوظف على أهل كل حي من المدينة من يجمعون العقارب ويقتلونها[2]. وقد يكون هذا حصل بحمص كذلك، إلا أن تلك المكافحة تكون مؤقتة وفي حينها، وقد تكون العقارب جمعت من حمص في حقبة زمنية معينة، واستخدمت كسلاح عسكري[3].

ولا تسعف المصادر التاريخية بعمل مماثل في حمص، وإن الوصول إلى نتيجة في هذه المسألة يتطلب أخذ عينات من تربة حمص وفحصها في المختبر، ومعرفة تركيبها الكيميائي ومدى عدم ملائمتها لعيش العقارب، أو مدى مقاومتها لسُمها، ولكن هل تربة حمص في حقبة الدراسة لا زالت هي تربة اليوم؟.

٥-مصادر المياه في حمص

وأما السبب المباشر الذي ذكره الماوردي لاختلاف تقدير الخراج ما يختص بالسقي والشرب فخراج سقي الأمطار أكثر من خراج سقي المروي، وعليه فقد

---

١ ـ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٢. البستاني، دائرة المعارف، (وهو قاموس عام لكل فن ومطلب)، حرب بن أمية إلى دمشق، دار المعرفة، بيروت، مج٧، ص٢١٧.

٢ ـ البلاذري، فتوح، ص١٨٣.

٣ ـ حيث يذكر أن الملك انوشروان الفارسي حاصر مدينة نصيبين ولم يتمكن من فتحها فأشار عليه بعض الحكماء أن تجمع إليه العقارب من تلك النواحي، فحملوها له من قرية شهرزور، وهي كثيرة العقارب، فرماهم بها بالعرادات والقوارير، فكان يملأ القارورة من العقارب ويضعها في العرادة، وهي على هيئة المنجنيق، فتقع القارورة وتنكسر وتخرج تلك العقارب، ولا زال يرميهم بها حتى ضج أهلها وأصابوا منها بلاء وتوقفوا عن القتال، وفتحوا المدينة عنوة. أحمد (يوسف نعيم): نصيبين من الفتح الإسلامي حتى الفتح العثماني، ١٩هـ / ٦٤٠م ـ ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، أطروحة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ص٢٠.

تعددت مصادر الري في حمص.

فالمحاصيل الزراعية مرتبطة بوفرة المياه ولم تكن مياه الأمطار المصدر الوحيد لوفرة الماء في حمص، فقد استخدمت مياه نهر العاصي، حيث أفاد أهالي حمص في ري مزروعاتهم وبساتينهم، ويبدو أن بساتين حمص كان يرفدها العاصي بطريقتين إحداهما ساقية حمص، "حمص كانت تأتيها قناة من ماء جوسية"، لري المزروعات، بالإضافة إلى بحيرة قطنة، وثانيها النواعير التي كانت ترفد مجرى نهر العاصي على جوانبه، وتوصل بشق الأرض عبر قنوات صغيرة، بالإضافة إلى الاستفادة منها في فصل الصيف تحديداً في إيصال الماء إلى المدينة.

المنطقة	الحاضرة	مصادر المياه	المصدر والمرجع
	حمص	نهر العاصي	الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤. ابن خرداذبة، المسالك، ص٧٣. ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٢.
		مياه الأمطار	المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٩.
		شرب أهلها من قرية قرب جوسية.	الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤.
		بحيرة حمص	العمري، مسالك الأبصار، السفر ٣، ص٥٣١.
الحواضر الشمالية	الرستن	نهر الميماس "العاصي"	الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٤٣. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٥.
	حماه	العاصي، ونواعيره تسقي الأراضي المجاورة	الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٣٠٠. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٦.
	شيزر	العاصي ونواعيره.	معروف عزيز، تاريخ شيزر، ص٢٣.

	كفر طاب	يجمعون ماء الأمطار بالصهاريج	الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٤٧٠.
	معرة النعمان	الآبار	الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص١٥٦.
الحواضر الجنوبية	قدس	بحيرة قدس	الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٣١١.
	جوسية	فيها عيون تسقي أكثر ضياعها سيحاً كما تزود بقنوات ري من العاصي	الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص١٨٥. الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤.
	قارة	يأتيها الماء من عيون، وتخزن في صهاريج لحفظها.	ابن جبير، الرحلة، ص٢٠٩.
الحواضر الشرقية	القريتين	روافد بعض الأنهار	الحموي، المشترك وضعاً، ص٣٤٤.
	تدمر	ينابيع وعيون	عطوان، الجغرافية التاريخية، ص٥٧.
	سلمية	الآبار	زكريا، جولة أثرية، ص٢٦٨.
الحواضر الساحلية الغربية	أفامية	بحيرة أفامية التي يخترقها العاصي.	أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٦٣.

يحمل هذا الجدول دلالة مفادها وجود مناطق زراعية تعتمد على مياه الأمطار "بعلية" وأخرى تعتمد على تزويدها بالقنوات للري "مروية" ولا شك أن الثانية تتطلب من الفلاح نفقات وعناية أكبر الأمر الذي جعل تقديرها خراجياً أقل من الزراعات البعلية.

وهكذا فالماء عنصر الحياة، وعامل رئيسي في وجود الاستقرار البشري، وعامل النشاط الاقتصادي، ويتفاوت وجود الماء في حمص وحواضرها من منطقة لأخرى، حيث يتوفر في منطقة وينذر في أخرى، لذا تركز الاستيطان البشري في حاضر حمص حول نهر العاصي على الأغلب، إذ وردت عبارات تشير إلى إحاطة

العاصي بالعديد من القرى والسكان.

ولكن لا يفوت الحديث عن أحد المرتكزات الأساسية التي ساهمت في تنمية حمص الاقتصادية خلال الحقبتين الراشدية والأموية، وهي المورد المائي المهم نهر العاصي.

- **نهر العاصي**

يعد نهر العاصي شريان الماء الأساسي الذي ساهم في نهضة حمص الاقتصادية منذ سالف الزمن، وحتى وقتنا الحاضر، قال الله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي"[1].

ويبدو أن هذا النهر كان يسمى باسم المنطقة التي يمر فيها، أو بصفته من جريانه العكسي من الجنوب إلى الشمال بعكس أنهار العالم، ولذلك عرف بعدة تسميات منها (الأُرند، أو الأرنط، والمقلوب، ونهر الرستن، ونهر أنطاكية، ونهر حماه، ونهر الميماس)[2]. والغالب على تسميته نهر العاصي لأنه يجري من الجنوب إلى الشمال[3].

أما منبع ومجرى هذا النهر فهو (..... الخارج من القرية المعروفة باللبوة بين حمص ودمشق يشق بحيرة قدس، وبحيرة قامية، ويصب إليه بالقرب من أنطاكية نهر الرقيا الخارج من بحيرة جندراس)[4].

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية رقم ٢١.

٢ ـ ابن العديم (عمر بن أحمد): (ت ٦٦٠هـ /١٢٦١م) بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه وقدم له سهيل زكار، دمشق، ط١، ١٩٨٨م، ج١، ص٣٩٠. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): (ت ٣٤٦هـ /٩٥٧م)، التنبيه والإشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان،١٩٨١م،ص٦٨. المقدسي (محمد بن أحمد): (ت ٣٨١هـ / ٩٩١م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، ط١، ٢٠٠٣م، ص٦٧. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٦٢.

٣ ـ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج١، ص٣٩٠. أورد القلقشندي رأياً مخالفاً فقال أنه سمي بالعاصي لأنه لا يسقي الأرض المجاورة إلا بعد رفع الماء بنواعير تسقي الأرض من خلالها. القلقشندي، ج٤، ص٨٠. لكن هذا التفسير يتناول مرحل لاحقة للدراسة وخاصة أن العاصي كان يشق الأرض سيحاً. ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج١، ص٣٩٠

٤ ـ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٦٨. ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج١، ص٣٩٠. ومخرج

ويبدو أنه كان صالحاً للشرب[1] وليس فقط للزراعة. أما المسافة بين النهر ومدينة حمص عند بابها الغربي المقابل للنهر فقدرت برمية سهم[2].

كما أن قلة الماء وانحباس المطر في بعض السنوات في بادية حمص كان له أثر كبير في حياة أهلها الاجتماعية، فاستثمر كثير من السكان البادية بالعمل في الرعي والتنقل من مكان لآخر طلباً للكلأ والماء. أكثر شرب أهل حمص من ماء المطر[3]. وهذا يؤكد أنهم كانوا يحفرون الآبار لتخزين ماء المطر، كما أنهم كانوا يشربون من نهر العاصي على ما يذكر الحميري[4]، بالإضافة إلى الينابيع[5] الجوفية التي تغذي المغاور. بالإضافة إلى وجود قناة بقرب جوسية تزودهم بماء الشرب[6]. وبذلك يكون لديهم فكر مائي صحي يتلاءم وظروف العصر الذي يعيشون فيه، خاصة فيما يتعلق بتنقية مياه العاصي للشرب.

وتعد الأمطار المصدر الرئيسي لجميع موارد المياه في بلاد الشام عامة؛ فمنها تتكون المياه السطحية الجارية، كالعاصي وروافده، وكذلك المصادر الجوفية التي

نهر الأرند من أراضي جبال دمشق مما يلي البرية ويجتاز بأنطاكية ومصبه في بحر الشام. ابن رسته (أحمد بن عمر) : (ت٢٩٠هـ / ٩٠٢م)، الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م، ص٩١. ويأخذ نهر العاصي بشكل عام في الأراضي اللبنانية الاتجاه من الجنوب إلى الشمال، وعند الحدود السورية ينحرف بشكل حاد إلى الشرق ويجري في هذا الاتجاه حتى قرية ربلة، وينحرف بعدها مجرى النهر إلى الشمال، ويحافظ على هذا الاتجاه حتى يصب في بحيرة قطينة، ثم يمر من غرب مدينة حمص، ثم حماه ومنطقة الغاب حيث يغادرها قرب مدينة جسر الشغور في حين أنه يغادر الأراضي السورية بعد مدينة دركوش ثم يصل إلى مصبه في البحر المتوسط قرب لواء اسكندرون في خليج السويدية. طلاس، المعجم الجغرافي، مج١، ق١، ص٢٥٠.

١ ـ ولحمص نهر عظيم يشرب منه أهلها. الحميري (محمد بن عبد المنعم): (ت ٧٢٧هـ /١٣٢٦م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢١، ١٩٨٤، ص١٩٨.

٢ ـ الحميري، الروض المعطار، ص١٩٨.

٣ ـ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٩.

٤ ـ الحميري، الروض المعطار، ص١٩٨.

٥ ـ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٢.

٦ـ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٩.

تغذي الآبار والعيون، كما وجدت في حمص القنوات وساعد على وجودها مرور العاصي في اغلب حواضرها، حيث يتم حفر مجارٍ متصلة بالنهر حتى المكان المطلوب.

وبذلك فقد ساعد تعدد مصادر المياه في حواضر حمص على تنشيط الزراعة وازدهارها.

ثانياً: الصناعة:

١-عوامل قيام الصناعة في حمص:

كانت الصناعة قبل الإسلام بسيطة، وقد تركت للعبيد والموالي، لأن العربي كان يأنف من العمل الحرفي وينظر إلى العاملين بها نظرة ازدراء، لأنها كانت لا تليق حسب اعتقادهم بالحر[١]. وجاء الإسلام فقلب المفاهيم وخالف الأعراف والتقاليد ورفع مكانة العمل والعمال والصناع بشكل عام، وشيئاً فشيئاً بدأت الحرف تلقى القبول وينخرط فيها العربي كغيره من أبناء الجنس البشري. وقد ساعدت عدة عوامل على تقدم الصناعة في حمص ومنها: الإسلام الذي شجع وحث على الصناعة، قال تعالى: " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"[٢]. وكذلك ورد الحديث الشريف عن الرسول محمد ﷺ : "لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره فيبيعها، فيكفّ بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"[٣].

وكان معاوية بن أبي سفيان يحث على إتقان الصناعة قائلاً: "خير الصنائع ما أبقى ذكراً حسناً"[٤]. بالإضافة إلى عملية التوسع والامتزاج مع الشعوب التي

---

١ ـ فقد قيل إن أكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بإقليم بلاد الشام يهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٢.

٢ ـ سورة التوبة، الآية ١٠٥.

٣ ـ النووي (يحيى بن شرف)، (ت ٦٧٦هـ): رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة، دار العلم، بيروت، ١٩٧٠م، ص٢٠٥.

٤ ـ البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٧٦.

انضوت تحت راية الإسلام التي أدت إلى عمل الجميع للمحافظة على التراث الحضاري القديم في مختلف الميادين، بالإضافة إلى التقدم العمراني والبشري ووفرة الأسواق ووفرة المواد الخام النباتية والحيوانية، والأيدي العاملة ورؤوس الأموال وغيرها من متطلبات الصناعة ومدخلاتها[1]، وبالرغم من أن الزراعة في مدينة حمص قديمة تعود إلى أزمان غابرة بدلالة ظهور أقنية قديمة مائية في ضواحي حمص، فقد أصبحت حمص مركزاً صناعياً كبيراً وذلك لموقعها وسهولة مواصلاتها، وتوفر مائها والمواد الأولية فيها[2].

٣-الثروة المعدنية وأهم الصناعات في حمص

تحتوي حمص على العديد من الخامات المعدنية التي ساعدت على ازدهار وتقدم صناعتها ومن هذه المعادن:

المنطقة	أشهر الصناعات والمعادن	المصدر والمرجع
حمص	ذهب، فضة، وقد استخدمت في صناعة الحلي وسك النقود	الواقدي، فتوح الشام، ص١٣٨. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٤٧. أثناسيو، سورية، مج٣، ص١٣.
	النحاس	المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٩.
	الزجاج المعتم [3]	أثناسيو، سورية، مج٣، ص١٣. محاسنة، الأحوال الاقتصادية، ص١١٣.
	الآلات الموسيقية	ابن عبد البر، بهجة المجالس، ج٢، ص٢٦٣.
	استخراج العطور	أثناسيو، سورية، مج٣، ص١٣.
	عصر الزيتون	أثناسيو، سورية، مج٣، ص١٣.
	القدور	أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٦٣.

١ ـ زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٣٩-١٤٠.

٢ ـ العلاف، ملتقى، ص١١٩.

٣ ـ روستوفتزف (م): تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة ومراجعة زكي علي، محمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٠٩.

	الصناعات النسيجية وخاصة الثياب البلعسية، والبروكار، والأقمشة المضلعة بالحرير والبشاكير المزخرفة بالألوان، الشراشف والمناشف والأنسجة القطنية والحريرية والأقمشة الأرجوانية والقماش الفائقّ على اختلاف أنواعه وارتفاع أثمانه حتى غدت حمص في المرتبة الثانية بعد الاسكندرية.	العمري، مسالك الأبصار، السفر ٣، ص٥٣١. الريحاوي، رحلة الخياري، ص٢٤. الخوند، موسوعة ج١٠،ص٢٨٦. أثناسيو، سورية، مج٣، ص١٣. كرد علي، خطط، ج٤، ص٢٠١.
	الورق	زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٥٧.
حماه	الذهب والفضة والجوهر	المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٤٧.
	الصناعات القطنية والأقمشة	علي، خطط، ج٤، ص٢٠١.
كفر طاب	الخزف	أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٦٣.
	الدباغة وصناعة اللبن "الطوب" للبناء	الحميري، الروض المعطار، ص٥٠٠.

إن الجدول السالف يوضح أن أغلب الصناعات كانت تقوم في حمص على الأغلب، ولا تقوم في حواضرها، إذ أن الحواضر تقدم المواد الخام الأولية وترسلها إلى المركز الأقرب حمص، حيث وجود المصانع فقد اشتهر عهد الوليد بن عبد الملك باتخاذ المصانع وكثرتها في الشام[1]، وكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار[2]، والأيدي العاملة المختصة باعتبار حمص السوق الأكبر لحواضرها، وسوق للبادية حيث يتم تبادل السلع بالمواد الأولية.

وإذا كان الجدول السابق يبين وجود بعض المعادن كالذهب وهو من المعادن الثمينة، والفضة التي اقترن وجودها بالذهب على الأغلب، فلا بد أن الحديد كان

---

١ ـ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١١٣. مجهول، العيون والحدائق، ج٣، ص١١.

٢ ـ الأبشيهي، المستظرف، ج١، ص٣٣١.

موجود أيضاً بدليل صناعة القدور، غير أن عملية صهر هذه المعادن لتحويلها من مادة خام أولية إلى مادة صناعية تتطلب وفرة الطاقة اللازمة لصهرها، ولابد أن الخشب كان يمثل وقود الصهر لتلك المعادن، وذلك لوفرة الغابات الحراجية في حمص، وبذلك فقد توفرت في حمص صناعة الأواني المعدنية مثل القدور والفؤوس والمحراث والخناجر والسيوف والسكاكين، وكل أدوات الزراعة.

أضف لذلك فقد اشتهرت حمص بالصناعة النسيجية، على اختلاف أنواعها الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية، وقد اشتهرت بها حمص لأنها من المتطلبات الأساسية لحياة الإنسان الثلاث "المسكن، والملبس، والمأكل"، لذلك كانت الحياكة من الصناعات القديمة والمهمة، وساعد على ذلك وفرة المواد الخام الأولية كالحرير والقطن والصوف والكتان[1]، كما أن صناعة الصوف ودباغة الجلود وصناعتها ترتبط بتوفر المواشي.

أضف إلى ذلك اهتمام ولاة البلاد بمظاهرهم وملبسهم لمجاراتهم الروم المجاورين، فقد قيل إن معاوية بن أبي سفيان أثناء ولايته على الشام كان يلبس الثياب الباهظة الثمن[2]، وكان سليمان بن عبد الملك بن مروان صاحب لباس الثياب الرقاق، وثياب الوشي: جبابا، وأردية، وسراويلات، وعمائم، وقلانس، فكان لا يدخل أحد من أهل بيته عليه إلا في الوشى، وكذلك عماله، وأصحابه، وخدمه، ومن في داره، وكان لباسه في ركوبه، وجلوسه، وعلى المنبر، وكان لا يدخل إليه أحد من خدمه إلا في الوشى حتى الطبّاخ، فإنه كان يدخل إليه في جبة وشي وطولة وشي[3]، وكذلك كان يفعل ولاة الشام.

---

١ ـ ومن المعروف أن مصدر الحرير الشرق، وبخاصة الصين، ومنه انتقلت إلى الغرب عن طريق الخليج العربي والبحر الأحمر، أو عبر طريق الحرير المار بشمال إيران إلى بلاد الرافدين فسورية، وكذلك القطن الذي اشتهرت به الهند، أما الصوف فكان لوجود المراعي التي تشكل بيئة تربية الأغنام والماعز والجمال، وكذلك الحال بالنسبة للكتان الذي كانت تصنع منه الخيام والعمائم. زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٤٤ـ١٤٩.

٢ ـ الكتاني، التراتيب الإدارية، ص٢٦.

٣ ـ اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٢٩.

وقد اشتهرت حمص منذ القدم بصناعتها التقليدية، وبرع أهلها بصناعة النسيج القطني والحريري، والقصب الملس والديما والألاجا الحريرية والزنانير والشراشف والثياب الحريرية والوهابيات من الحرير والصوف، وتجد هذه الصناعات التقليدية سوقاً رائجة في العالم، وكانت حمص تصدر منتوجاتها منذ القديم إلى دمشق وحلب وبيروت وتركيا ومصر، وكانت ترسل صادراتها إلى مختلف أنحاء العالم عن طريق طرابلس الشام[1].

وكان وحشي قاتل حمزة مقيماً في حمص، ويلبس المعصفرات[2]. وكان أهل الصوائف يلبسون تبابين إلى الركبتين تحت السراويل مخافة السلب[3]، وكان ممن وثب على مروان بن محمد في نهاية الدولة الأموية من الحمصيين يرتدون القلانس الطوال على رؤوسهم[4].

وبالإضافة إلى الصناعات السابقة وجدت صناعات غذائية، وهي عبارة عن طحن وتجفيف وعصر وطهي المواد الغذائية، وقد لوحظ أن تنوع المحاصيل الزراعية، ودور العرب في تطوير الزراعة ومساهمتهم الواضحة في التقدم الزراعي كماً ونوعاً. وأدى هذا التطور الزراعي بالضرورة إلى تطور صناعي غذائي فقد تطلبت زراعة الحبوب إقامة المطاحن، وصنع الخبز[5]، وبعض أنواع الحلويات[6].

كما أن وفرة السكر والعنب والزيتون والأزهار تتطلب وجود معاصر استخراجية لهذه المواد الأولية، لتنتج عصير قصب السكر المجفف، والخمر والنبيذ من العنب، والزيت من الزيتون، والعطر من الأزهار.

اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٢٩.

١ ـ العلاف، ملتقى الحضارات، ص١١٩.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٢، ص٤٠٢.

٣ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٧، ص٢٠١.

٤ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٥، ص١٧٠.

٥ ـ الزمخشري، ربيع الأبرار، ج٢، ص١٣.

٦ ـ كان مما اشتهرت به الدولة الإسلامية من حلويات منذ زمن معاوية الكنافة، فكان سليمان بن عبد الملك يتسحر في ليالي رمضان منها، القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ص١٣٨.

وقد كان هشام بن عبد الملك يحث على استخدام أساليب زراعية للمحافظة على المزروعات في الشام، فقد نصح الناس أن يقطفوا الزيتون بأيديهم ولا ينفضوه نفضاً حتى لا تنكسر غصونه، وتفقأ عيونه[1].

كما أن حمص اشتهرت بالصناعات المعدنية والحربية، فأدوات الفلاح الزراعية كانت تصنع من الحديد، وتوفرت الآلات في المزارع في العصر الأموي[2]، وكذلك قدور الطعام، والأسلحة كالسيف والرمح والدرع وغيرها من آلات القتال، كما أن وفرة الغابات في حمص وفر الأخشاب اللازمة لبناء بعض البيوت، وسقفها.

كما أن وجود الأعمال الإدارية في حمص كالدواوين والسجلات المختلفة والكتاتيب تحتاج إلى أوراق الكتابة، وهو ما اشتهرت به حمص[3].

كما وجدت صناعات موسيقية للهو والطرب، وربما أنها كانت بدائية تعتمد على مواد أولية كالخشب وخيوط النايلون، كما وجدت صناعة الزجاج في حمص وحواضرها، وربما أنها كانت تستخدم في صناعة أدوات الطهي والطعام[4]، وكذلك الخزف للزينة.

بالإضافة إلى صناعة الطوب "اللبن" لبناء المنازل وتشييدها، فعندما افتتح أنوشروان الشام نقل من حمص الرخام والأحجار والفسيفساء إلى العراق فبنى ما استحسن بناءه[5]، وبالرغم من إشارة عمر بن الخطاب لأبي الدرداء بحمص بضرورة الاستفادة مما خلفه الروم والفرس من بناء فإن الحمصيين كانوا كثيري البناء حتى أن أبا الدرداء كان يقول متعجباً: "ما لي أراكم تبنون شديداً وتبنون ما لا تسكنون"[6].

---

١ ـ الطبري، تاريخ، ج٧، ص٢٠٦.

٢ ـ المسعودي، مروج، ج٣، ص١٢٦.

٣ ـ زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٥٧.

٤ ـ محاسنة، الأحوال الاقتصادية، ص١١٣.

٥ ـ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٢٨٨.

٦ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٧، ص١٣١، ١٣٩.

وهذه الرواية تشير إلى حث أبي الدرداء الحمصيين على الزهد في الدنيا من جهة، وكذلك تظهر أن الحمصيين كانوا يبنون أكثر من مسكن للشخص الواحد، وربما للاستفادة من بيعها أو تأجيرها ولوفرة مواد البناء.

وعلى الرغم من أن المسلمين عند فتح حمص كانوا ينزلون الخيام[1]، وذلك لعدم استقرارهم بعد، أما وقد استقروا فقد بنوا المنازل، ويبدو أنها كانت بيوتاً طينية بسقوف خشبية[2].

ولابد أن هناك صناعات أخرى كانت تتطلبها ظروف الحقبة الدراسية، غير أن المصادر صمتت عنها إما لأنها من الأمور الأساسية المتعارف عليها، والتي تتفق مع باقي مدن ذلك العصر، أو أن بعض الصناعات انقرضت لتبدل المواد الخام الأساسية، وتطورها كما هو الحال في الوقت الحالي، وينقص معرفة كثير من المعلومات مثل الحرف وأعدادها ؟.

فوفرة الأخشاب تتطلب وجود حرفة النجارة، ووفرة المعادن تطلب وجود حرفة الحدادة والصياغة، وكذلك لابد من وجود حرفة الدباغة وأعمال البناء، والحياكة والغزل وغيرها مما تتطلبه ظروف المجتمع، وربما أن النساء كن يغزلن الصوف في منازلهن.

إن اشتهار حمص بالصناعات النسيجية يتطلب وفرة مهنة الحياكة والخياطة التي وجدت في بلاد الشام[3].

فلعل متطلبات الحياة الاجتماعية والاقتصادية كانت تتطلب توفير الصناعات الأساسية والكمالية التي لا يستغنى عنها أي بيت حمصي، فهل كانت حاجات السكان ورغباتهم الاقتصادية متوفرة؟.

---

١ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٢٠.

٢ ـ طلاس، المعجم الجغرافي، مج٤، ص١٥٨.

٣ ـ ابن الجوزي (جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي)، (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م): أخبار الظرّاف والمتماجنين، عن نسخة الخزانة التيمورية، منشورات القديس، دمشق، ١٣٤٧هـ، ص٣٩.

ثالثاً: التجارة:

كان لقيام الدولة العربية الإسلامية وانتصار العرب الفاتحين في الشام والعراق إلى القضاء على الدولة الفارسية، وإلى طرد الرومان وإبعادهم من المنطقة العربية، وتقلصت بذلك الصراعات الدولية العنيفة التي كانت تقوم أحداثها على الأرض العربية، وكانت الحروب المستمرة تحد من التجارة والنشاط التجاري وذلك بسبب فقدان الأمن من ناحية، وضخامة الرسوم المفروضة على التجارة أثناء مرورها بين حدود هذه السلطات وكانت هذه الإجراءات تزيد في ثمن المواد التجارية المنقولة من منطقة إلى أخرى[1].

وكان العرب في حقبة ما قبل الإسلام يقصدون حمص للتجارة، لشراء صناعاتها النسيجية بدليل أنه عندما جرت المفاوضات بين العرب الفاتحين والرومان، والتي قضت برحيل العرب عن حمص على أن يقدم سكانها ١٠٠ ثوب من الديباج - البروكار - وهو دليل على قدم الصناعات النسيجية في حمص منذ ذلك الوقت المبكر[2].

كما أن رحلة الشتاء والصيف كانت ذات أثر كبير فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، قال تعالى: " لإيلاف قريش إيلافهم، رحلة الشتاء والصيف"[3]. فقافلة قريش تحط كل صيف لتبادل حاصلات الجزيرة بمنتجات الشام، كما إن التجار يقصدون حمص بالبضائع والأمتعة والسلع من كل فن "مطلب" يحتاجونه لإشباع حاجاتهم ورغباتهم[4].

---

١ - زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٥٨.

٢ - شيخاني، معالم وأعلام، ص٣٤.

٣ - سورة قريش، الآية ١، ٢. وقد أخذ هاشم بن عبد مناف الأمان من الرومان لتنشيط تجارة مكة مع الشام، القالي، ذيل الأمالي والنوادر، ص١٩٩.

٤ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤. الحميري، الروض المعطار، ص١٩٨. يحيى (لطفي): استقبال بلاد الشام للفتح العربي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، (بلاد الشام في صدر الإسلام)،

وقد اشتهرت حمص عند الفتح الإسلامي بأنها مدينة تجارية من الطراز الأول وكان هذا بسبب ثراء أهلها ورغد العيش الذي عاشوا فيه[1].

وتجدر الإشارة إلى أن الأخبار عن حركة التجارة في هذه الحقبة جاءت على شكل روايات متفرقة، وتتحدث في الغالب عن حالات فردية، ولا تسعف في تكوين صورة واضحة عنها، كما لا تُسعف في تقدير حجم التجارة الداخلية والخارجية، فضلاً عن تقدير الواردات والصادرات[2].

وتقسم التجارة إلى نوعين داخلية وخارجية:

أ ـ التجارة الداخلية:

والتجارة الداخلية على الأكثر تجري بين تجار المدينة وتجار حواضرها، وفلاحيها وأعرابها إذ يقدم سكان المدينة للفلاحين والأعراب المصنوعات والأدوات والآلات الزراعية، وبعض المواد الغذائية، ويحصلون منهم على المواد الأولية والألبان والأجبان والصوف وبعض المزروعات.

وللفلاحين أسواق خاصة بهم يشترون منها ما يحتاجون إليه، ويبيعون فيها منتجاتهم، وهناك أسواق حرة دورية تعقد في أيام معينة من الأسبوع بين الفلاح والتاجر لتبادل المنتجات، ومن هذه الأسواق: سوق الغنم، وسوق الخميس، وثمة أسواق قروية أخرى تعقد في المدينة بالخانات حيث يلتجئ إليها الفلاح بحيواناته ودواجنه ومنتجاته[3]. ولعل أبرز سلع حمص وحواضرها كانت المصنوعات النسيجية، والغذائية، والمعدنية، التي ذكرت في الجدول السالف الذكر.

تحرير محمد عدنان بخيت، الجامعة الأردنية، مج٣، ص٣٩ـ٤٠. الزهراني (ضيف الله يحيى): مصادر التموين الغذائي لمكة المكرمة، الندوة العالمية الرابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الرابع، الجزيرة العربية في العصر الأموي، جامعة الملك سعود، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ص٢٥٢.

١ ـ العفيفي (عبد الحكيم): موسوعة ١٠٠٠مدينة إسلامية، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٠٧.

٢ ـ بطاينة، الأحوال الاقتصادية، ص١١٥.

٣ ـ محلي، حمص أم الحجارة، ص٦٢ـ٦٤.

ب ـــ التجارة الخارجية:

أدى قيام دولة عربية إسلامية موحدة وصلت إلى حدود الصين شرقاً وإلى جنوب فرنسا غرباً إلى ازدهار التجارة، وبالتالي نمو فروع لخطوط التجارة الماضية وخاصة في نهايات الطرق، ذلك أن ازدياد النشاط التجاري على الطرق القديمة، وازدياد الفعاليات التجارية، أدى بالتجار إلى توسع عملهم، والتنويع في بضائعهم في البحث عن السلع غير الموجودة في الدولة الإسلامية، ولعل رقي الصناعة والزراعة وتقدمها في حمص وكثرة إنتاجها دفع التجار إلى تصريف الفائض في أسواق مجاورة.

وقد كانت الشام تستورد من الهند الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والأفاوية كالبهار والفلفل ونحوهما، والقطن، ومن الصين المسك والكافور والعود والأحجار الكريمة، ومن بلاد فارس الطلاء والزيوت العطرية ونسيج الكتان، ومن الحبشة العقيق والعاج والجلود، ومن أفريقيا الشرقية العطور والطيوب، وخشب الأبنوس وريش النعام، ومن أرمينية البسط والسجاد وغيرها من السلع[1].

كما تاجر المكيون مع بلاد الشام فكانوا يأتون إليها حاملين بضائع الهند ويعودون منها ومعهم الحبوب والزيت والخمور والأسلحة، والمنسوجات والجواري[2]. وهذا مؤشر على أن سلع الهند كانت تصل الشام عن طريقين الأول عبر الخليج العربي ونهر الفرات، والثاني عن طريق اليمن فمكة فبصرى الشام، ويفترض أن يجري تبادل داخلي في مدن الشام، أضف لذلك أن الخلفاء يقتنون الغالي والنفيس،

---

١ ـ زكار وخربوطلي، الحضارة العربية، ص١٦٩-١٧٠. هايد (ف): تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، عربه عن الترجمة الفرنسية، أحمد محمد رضا، راجعه وقدم له عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ج١، ص١٨٢. فرح (نعيم): أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمة في العهد البيزنطي من خلال المصادر اليونانية واللاتينية المعاصرة، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد ١٥-١٦، ١٩٨٤م، ص١٥٦.

٢ ـ عاقل (نبيه): الأسباب الاقتصادية والاجتماعية لمعارضة قريش الدعوة إلى الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٧، دمشق، ربيع الأول ١٤٠٢هـ / كانون الثاني ١٩٨٢م، ص٨٤.

وأن الولاة كانوا يقلدون الخلفاء، ويبدو أن تجارة السلع النفيسة اقتصرت على فئة معينة.

وكان التجار الغربيون يجدون في الشام منتجات الشرق كله تقريباً، فلم يكونوا مضطرين للقيام برحلات طويلة ومتعبة للحصول عليها، لوفرة طرق عديدة تأتي هذه المنتجات عبرها[1]. وكان يفرض على التجارة الخارجية ضريبة العشر[2].

وقد ساعدت عوامل ازدهار الزراعة والصناعة في حمص على تقدم التجارة وكان لبقاء بعض الحرفيين، وأصحاب المهن في حمص بعد الفتح الإسلامي أثر كبير في تقدم الحياة الاقتصادية وتطورها.

طرق المواصلات:

أ ـ الطرق البرية:

تعد البلاد العربية قلب العالم وملتقى للطرق التجارية البرية والبحرية، وقد أولت الدول منذ حقبة ما قبل الإسلام أهمية خاصة للطرق، إذ لا بد للتجارة المزدهرة من شبكة كاملة للمواصلات، وقد كانت أشهر الطرق البرية قبل الإسلام من الجزيرة العربية والهلال الخصيب طريق بين عدن وساحل الشام ماراً بالحجاز، ويتفرع منه طريق إلى مصر عبر سيناء. ثم ضعف هذه الطريق عند تحول التجارة إلى الخليج العربي حيث كانت القوافل تمر بتدمر إلى ساحل الشام، ثم حولها الفرس بعد ذلك إلى شمالي الجزيرة متجنبة البادية، ومماشية الرافدين إلى سورية الشمالية ومنها إلى الساحل، ثم طريق بري آخر هو المتجه من حضرموت أو عُمان شمالاً إلى الدهناء، فيقطعها ثم ينعطف غرباً إلى نجد، ومنها إلى الحجاز، فيسير شمالاً ماراً بمكة، والمدينة المنورة، ومدائن صالح إلى البتراء، ومنها يسير

---

١ ـ هايد، تاريخ التجارة،ج١، ص١٧٥.

٢ ـ خماش، الشام في صدر الإسلام، ص٣٠٩. والعشور ضرائب تفرض على السلع الواردة إلى البلاد الإسلامية، وقد وضع أسسها عمر بن الخطاب الذي قام بتعيين مجموعة من العمال لتحصيل العشور، فكان التجار المسلمون يدفعون ربع العشر، وتجار أهل الذمة نصفه، وتجار الحرب يدفعون العشر. أبو يوسف، الخراج، ص١٣٢.

إلى الشام أو مصر[1].

ب- الطرق البحرية:

كان لكبر مساحة حمص واحتوائها على مناطق ساحلية أثر كبير في تنشيط تجارتها الساحلية على البحر المتوسط، حيث كانت تفد تجارة غرب المتوسط من جنوب فرنسا، وغيرها من مراكز التجارة لتحط رحالها في سواحل الشام ومنها أنطرطوس[2]، ولذلك كان لحمص نصيب من التجارة البحرية.

وإذا كان ما سلف يمثل خط سير القوافل التجارية بشكل عام فتجب الإشارة إلى شوارع حمص وطرقها، والمسافات بينها وبين حواضرها الأمر الذي شجع على التجارة بها.

فما يشير إلى هندسة الطرق في حمص أن طرقها كانت مرصوفة بالحجارة[3]، ويعود ذلك لوفرة الحجارة السوداء من جهة، والتي تعود لحركات طبيعية أثرت في تشكل سطح المنطقة كالزلازل والبراكين وما صحبها من اندفاعات الحمم البركانية التي وفرت مثل هذه الحجارة، والتي تعرف في بعض المناطق باسم الحرة، ومن جهة أخرى فقد كان للعناية الرومانية قبل الإسلام أثر في المدينة وشوارعها حيث كانت محطة لاستراحة هرقل بعض الأحيان.

الأسواق:

شغلت الأسواق دوراً كبيراً في حياة أهل حمص، سواء في الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، فكانت السوق مركز البيع والشراء وبها تعقد الصفقات وتقرر حالة البلاد الاقتصادية، فالسوق أبرز ميادين تصريف الإنتاج الزراعي والصناعي، كما أن السوق أثرت في الحالة الاجتماعية ففيها التقى أهل

---

١ - زكار وخريوطلي، الحضارة العربية، ص١٧١-١٧٢. الأفغاني (سعيد): أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م، ص١٦.

٢ - علي، خطط الشام، ج٤، ص٢٤٣.

٣ - البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٠. ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٢. الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤.

حمص بعضهم ببعض فتعارفوا وتحادثوا، واختلطت عناصر السكان المختلفة من عرب ورومان، وأهل ذمة وغيرهم، كما كانت السوق مركزاً سياسياً ففيها تتلاقى الناس تحت ستار التجارة بعيداً عن نظر الولاة فيدبرون المؤامرات ويعلنون الثورات كما حدث عندما قدم مروان بن محمد إلى حمص ولقي أهلها بالسوق فقرروا قتله[1].

ومن المتعارف عليه أن سوق المدينة ظاهرة اقتصادية ولكنها في التعريف الأشمل ظاهرة إنسانية حضارية تشمل المكان مجموعة "الحوانيت[2]"، والإنسان "الباعة، والمشترين"، والسلعة "المصنوعة أو الخام"، ومن هذا التعريف فليست السوق تعبيراً عن حياة المدينة الاقتصادية، وعنوان نشاطها الصناعي والزراعي والتجاري فحسب بل هي أيضاً تعبير عن حياتها الاجتماعية وقيمها الأخلاقية وطراز معيشتها وعن سياستها[3].

كما واشتملت الأسواق على أماكن لحفظ المنتجات وتخزينها، وأماكن وساحات لإيواء الحيوانات، وخانات "فنادق" يأوي إليها التجار من خارج حمص، ولكل طائفة من التجار قسم خاص يحمل اسمها، فوجدت أسواق منفردة للخضار والحبوب والطعام وغيرها[4].

وللفلاحين في حمص أسواق خاصة بهم يأخذون منها ما يحتاجون إليه، ويبيعون فيها منتجاتهم، بالإضافة إلى أسواق دورية حرة تعقد في أيام معينة من الأسبوع، يقصدها الفلاح وتاجر المدينة لتبادل المنتجات، منها: سوق الغنم، وسوق الخميس، وهو سوق عام لتبادل الحاجات، وهناك أسواق قروية تعقد في المدينة وبالخانات

---

١ ـ الطبري، تاريخ، ج٧، ص٤٣٨.

٢ ـ ويستدل على ذلك مما كتبه عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز يغلظ له فيه فكتب إليه عمر بن عبد العزيز..... إنما أمك كانت تختلف إلى حوانيت حمص فاشتراها دينار بن دينار فبعث بها إلى أبيك فحملت، فبئس الجنين وبئس المولود ثم وضعتك جباراً شقياً، وهذه الرواية تؤكد وجود سوق لبيع الجواري والعبيد. الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج١، ص٥٧٦.

٣ ـ شيخاني، أسواق حمص، ندوة حمص الأثرية والتاريخية الأولى، من ٢٦-٢٩/ ١١/ ١٩٨٤م، ص١٠٣.

٤ ـ محاسنة، الأحوال الاقتصادية، ص١٣٦.

حيث يبادل الفلاح تجار المدن على حيواناته ودواجنه ومنتجاته، وهناك أسواق خاصة تنتشر فيها دكاكين أصحاب الصناعة الواحدة كسوق تجار الأقمشة العتيق، وسوق الخراطين، وسوق النجارين، وسوق الكندرجية، وسوق الخضار، وسوق يعقد مرتين في الأسبوع لبيع الأشياء المستعملة تشترك به النسوة بالبيع إلى جانب الرجال، وسوق الخياطين والدباغين، ومعظم هذه الأسواق قديمة المنشأ والأصل[1].

وقد عرف بحمص سوق الطرائف، حيث كان الحجاج بن علاط السلمي الصحابي له منزل في هذا السوق المعروف بدار الخالدين،[2]، ويبدو من اسم هذا السوق أنه يحتوي سلعاً طريفة وثمينة ونادرة.

لقد تميزت حمص باختلاف بنيوي وتضاريسي ومناخي مما أعطاها تنوعاً في الحياة النباتية والحيوانية ونمط عيش السكان، فأدى الفائض الزراعي إلى إيجاد ورشات تصنيع له، فوجدت معاصر الزيتون، ومطاحن الحبوب، وصناعة الدباغة والغزل والنسيج، ونظراً لحاجة سكان المدن للمنتجات الزراعية، وحاجة الأرياف للمنتجات الصناعية نشأت أهمية التبادل التجاري، وزادت أهمية حمص، وزاد في أواصر العلاقات قرب مناطق الإنتاج من بعضها مما أنتج علاقات أخرى كالسمسرة والشراكة بالإضافة إلى أن عدداً كبيراً من سكان البلدة كانوا يزاولون مهنة البستنة وتأثير هؤلاء لا ينكر في اقتصاد البلدة.

ومما زاد في أهمية حمص منذ القديم كمركز صناعة وتجارة ريفية بدوية حضرية " موقع حمص المتوسط" بين الممالك والمراكز العسكرية القديمة في المنطقة مثل قطنة وقادش وتدمر وجوسية بالإضافة إلى ممالك حماه ودمشق[3].

ولم يعد هناك حاجة إلى مواسم وأسواق على ما كانت عليه الحال في حقبة ما قبل الإسلام، لأن العرب بعد الفتوحات الإسلامية سكنوا المدن المفتوحة

---

١ ـ العلاف، ملتقى، ص١١٩.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص٣٦٣.

٣ ـ شيخاني، أسواق حمص، ص١٠٤.

كحمص، فصارت تستغني كل مدينة بأسواقها، الدائمة على أسواق المواسم، و توقفت العرب عن الترحال بين أسواق الجزيرة، بما فتح الله عليهم، وسهل تجارة تأتيهم إلى مدنهم، بحيث يجدون في كل بلد عروضاً كثيرة من البلدان.

"وفي حمص سوق"[1]، وهي "عامرة بالناس، والمسافرون يقصدونها بالأمتعة والبضائع من كل فن، وأسواقها قائمة"[2]. ويبدو أن مكان السوق عند الفتح الإسلامي لحمص كان مجاوراً للمسجد[3]، وذلك تسهيلاً على أصحاب السوق لأداء الصلوات الخمس في المسجد، كما أن ذلك أكثر أمناً على منتجاتهم، وتسهيلاً على السكان من الشراء بعد خروجهم من المسجد. وقد ذكر أبو ذر الغفاري أنه كان يتجول في سوق حمص ومعه أبو الدرداء، وأنه اشترى قميصاً بأربعة دراهم في الوقت الذي كان عطاؤه (٤٠٠٠) درهم، مما يدل على رخص الأسعار[4].

ونظراً لموقع حمص المتوسط في الشام، ولقربها من البادية من جهتها الشرقية، فهي سوق للبادية، ومركز مهم لتزويدهم بحاجاتهم وكمالياتهم، الأمر الذي يفسر أسباب غزوات الأعراب على حمص في الحقبة المروانية في ظل انعدام الأمن.

ولعل من أبرز أسواق حمص قبل الإسلام مدينة تدمر، فهي تقع في مركز متوسط بين الفرس والروم، وبين العراق والشام وجزيرة العرب، وهذا الموقع المميز بالإضافة إلى توفر الماء فيها جعل منها محطة رئيسية لنزول القوافل، عند نقطة التقاء الطرق التي تعبر الصحراء، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وبالعكس، مما أدى لازدهار تجارتها، وشهرة أسواقها، حتى غدت قبلة التجار، من الهند وفارس والعراق والشام، وقد حصل التدمريون من شيوخ القبائل في البوادي على إذن مرور قوافلهم التجارية، دون أي خوف من الغزاة واللصوص،

---

١ ـ ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٢.

٢ ـ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٤. ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١، ص٦٧.

٣ ـ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٩.

٤ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٦، ص٢٠٩.

وكان المرشدون يقودون هذه القوافل عبر الصحراء، كما كان يواكبها ركب من الرماة لحمايتها من الغارات، كما أن النفائس التي كان التدمريون يحملونها معهم من بلاد الشرق كانت أغلى ما يفتخر به الملوك والقياصرة[1].

وقد اشتهرت الشام وضواحيها، بالزيت والأعناب والخمر والزبيب والمنسوجات الحريرية، وكانت تجارة الخمر تجارة رائجة إلى أن جاء الإسلام فحرمها[2]، ومن المعروف أن من يقوم بهذه الصناعة هم أهل الذمة وذلك تماشياً مع سياسة التسامح الديني.

وكانت الأسواق بشكل عام لا تخلو من المراقبة لمنع الغش، أو الزيادة في الأسعار، أو احتكار السلع، وربما كان الوالي في حمص يقوم بهذا العمل أو ينيب عنه صاحب السوق الذي يتولى مهمة مراقبة الميزان، والتجار ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إذا ظهر عكس ذلك، وقد تطورت هذه الوظيفة حيث أطلق على القائم عليها اسم المحتسب، وكان بعض الخلفاء كالوليد بن عبد الملك يمشي في الأسواق ويحتسب على البقالين[3].

ويلاحظ أن الأسعار في أسواق حمص وحواضرها كانت أرخص[4]، من غيرها من مدن الشام وتحديداً العاصمة دمشق، ولعل السبب في ذلك أن حمص كانت

---

١ ـ حمور (عرفان محمد): أسواق العرب عرض أدبي تاريخي للأسواق الموسمية العامة عند العرب، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٠.

٢ ـ حمور، أسواق العرب، ص٣٧. والملاحظ أن أسواق الشام، كانت منظمة، والأمن فيها يغلب على أكثر أحوالها، وذلك لوجود الحاميات القوية التي تراقب كل تحرك، ولأنها تقوم بأرض لها حكومة مسيطرة، ولها حصون قوية في وجه البادية والصحراء. حمور، أسواق العرب، ص١٩٩.

٣ ـ ابن حزم، رسالة نقط العروس، ج٢، ص٧١. زيود (محمد): نظام الحسبة في الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، السنة التاسعة، العددان ٢٩ ـ ٣٠، جامعة دمشق، ١٩٨٨م، ص١٥٠.

٤ ـ فقد كانت حماه كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار، حفلة بالأسواق. الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٣٠٠. العمري، المسالك، السفر٣، ص٥٣٤. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٦. الريحاوي، رحلة الخياري، ص٢٦. وكذلك كانت معرة النعمان كثيرة الأسواق والأرزاق. الحميري، الروض المعطار، ص٥٥٥. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٥.

تنتج تلك السلع في أراضيها، ولا تحتاج إلى عملية نقل السلع من مدينة إلى أخرى، ولقصر المسافة بين حواضرها خلافاً لغيرها من المدن.

كما اتخذت في حمص التدابير التي تشجع على التجارة والمتمثلة بتوفير سبل الراحة للتجار، فقد أنشأت النزل والخانات وتم توفير صهاريج الماء على الطرق ليشرب منها التجار أثناء تجوالهم وترحالهم[1].

النقود:

كان الرسول محمد ﷺ قد استخدم النقود على ما كانت عليه قبل الإسلام، فلما استخلف أبا بكر، أقرها كما فعل الرسول، ثم أقرها عمر بن الخطاب حتى سنة ١٨هـ /٦٣٩م، حيث ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها، غير أنه زاد في بعضها " الحمد لله" وفي بعضها "محمد رسول الله" وفي بعضها "لا إله إلا الله"، ولما اجتمع الأمر لمعاوية ضرب الدنانير عليها تمثاله متقلداً سيفاً، وكذلك الحال سك عبد الله بن الزبير دراهم مدورة في مكة، وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة، ولما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل أبناء الزبير، فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وسك الدنانير والدراهم في سنة ٧٠هـ /٦٨٩م، فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة بالشامي، وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاً، والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطين ونصف. فكان أول من نقش على الدراهم باللغة العربية عبد الملك بن مروان[2].

---

١ ـ محاسنة، الأحوال الاقتصادية، ص١٤٢.

٢ ـ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٩٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٥٥. ابن قتيبة، الأوائل، ص٣٤. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٩٦. الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٨٩. ابن قتيبة، المعارف، ص٣٠٨. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٢٩٦. القضاعي، عيون المعارف، ص١٦٤. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٢٦. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٥. القرماني، أخبار الدول، ص١٣٣. المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي)، (ت ٨٤٥هـ): النقود الإسلامية المسمى شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق وإضافات محمد بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ط٦، ١٩٨٨م، ص٥٩ ـ ٦٩.

ويرى المقريزي أن سبب سك عبد الملك الدنانير والدراهم وتعريبها كان بإشارة من خالد بن يزيد بن معاوية والي حمص، قائلاً: "يا أمير المؤمنين إن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجدون في كتبهم أن أطول الخلفاء عمراً من قدس الله تعالى في الدرهم" . فعزم عندها عبد الملك على سك العملة الإسلامية[1].

وهذه الرواية تدل على أن الخليفة عبد الملك استشار بطانته ومقربيه في أمر النقد، وربما أعجب رأي خالد الخليفة، خاصة أن خالداً بعد أن أقصي عن الخلافة تفرغ للعلم، فربما أنه قرأ ذلك الخبر "إن أطول عمر الخلفاء" في أحد الكتب التي اطلع عليها، فأخبر الخليفة بذلك ، وهي إشارة مقبولة لأنها تطالب بذكر اسم الله عز وجل على العملة، غير أن الملفت للنظر أن خالد بن يزيد بن معاوية يظهر حبه في بقاء عبد الملك خليفة لمدة طويلة، في الوقت الذي يتمنى عكس ذلك في داخله. ولكن هل جاءت هذه المعلومة لخالد بن يزيد مما قرأه من كتب مترجمة فقط؟.

ويبدو أن عبد الملك كان قد استفاد من خبرة خالد بن يزيد بن معاوية، في مسالة سك الدنانير والنقود، ففي الوقت الذي أنكر فيه ملك الروم ما أصلحه عبد الملك من بعض التغيرات على النقود، أشار خالد بن يزيد على عبد الملك "حرم

الطبري، تاريخ، ج٦، ص٢٥٦. حلاق (حسان): تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، " الحياة المالية والاقتصادية والإدارية"، دارا لنهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٥-٥٨.

١ - المقريزي، النقود، ص٦٩. كما أن هناك أسباباً متعددة دفعت عبد الملك لتعريب النقود منها سياسية لإعطاء البلاد مظهراً من مظاهر القوة، والمنعة، وإدارية لضبط ومراقبة ومتابعة شؤون الدواوين، وخاصة بيت المال، واقتصادية لإيجاد حجر الأساس الذي يقوم عليه الاقتصاد الأموي، وللتخلص من التبعية الاقتصادية الرومانية، وقومية تتزامنت مع حركة التعريب للدواوين. الناطور (شحادة): الثورة النقدية في عهد عبد الملك بن مروان، مجلة المؤرخ العربي، تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، دولة المقر، بغداد، العدد ٤٤، السنة ١٦، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، ص٨٩. دكسن (عبد الأمير): من رسوم الخلافة في العصر الأموي، مجلة المؤرخ العربي، تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، دولة المقر، بغداد، العدد ٤٤ ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م ، ص٨٣ ـ خماش (نجدة): تعريب النقد وأثره على العلاقات العربية البيزنطية والوضع الاقتصادي، مجلة دراسات تاريخية،جامعة دمشق، العدد ١٥-١٦، ١٩٨٤م، ص١٣٩-١٤٥.

دنانيرهم فلا تتعامل بها، واضرب للناس سككاً فيها ذكر الله ورسوله، ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير"[1]. ونصح الخليفة بإنشاء دار للضرب[2]. فشكر عبد الملك لخالد تلك النصيحة قائلاً: "فرجتّها عني فرّج الله عنك"[3].

لقد أثبتت التنقيبات الأثرية أنه شيدت في حمص دار لسك النقود في عهد انطونيوس بيوس الروماني (١٣٨-١٦١م)[4]، وعندما فتح المسلمون حمص كان بها دار لضرب النقد[5].

وإذا كانت المصادر الأولية قد صمتت عن الحديث عن دار ضرب حمص فإن التنقيبات الأثرية أثبتت ذلك، فقد وجد أن النقود التي أصدرتها مدينة حمص هي من آخر السكات التي صدرت بين أجناد الشام ما خلا دمشق العاصمة الأموية، وأكثرها تنوعاً حتى أنها تتميز ببعض سكاتها التي لم تكن لحاضرة الدولة الأموية نفسها مثلها، كالفلوس النحاسية التي تحمل في زخارفها صوراً لبعض الحيوانات كالفيل والحصان، كما أن حمص أصدرت الدراهم الفضية إبان العهد الأموي ويمكن تقسيم مراحل تطور النقد في حمص إلى مرحلتين[6]:

---

١ ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٢٩٦-٢٩٧. ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص٣١٩٢. السيوطي، المهذب من تاريخ الخلفاء، ص١٦٠. ابن الأثير، الكامل، مج٤، ص٤١٧. وأورد ابن عساكر إشارة إلى أن داوود بن يزيد بن معاوية هو الذي أشار على عبد الملك سك النقود، وليس خالد. تاريخ دمشق، ج١٧، ص١٩٥. أحمد (علي)، مظاهر التعريب في العصر الأموي، كلية الآداب، جامعة دمشق، ص١-١٠. http:// acarap Htmlplanet. Com/ arabizaion- j/ accessories/ jour-٢.htm.

٢ ـ ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص٣١٩٤.

٣ ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٢٩٧.

٤ ـ عبد الله (فيصل): أعمال التنقيب الأثرية في قلعة حمص السورية، (١٩٩٥-١٩٩٩م)، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العدد ٨٣-٨٤، أيلول كانون الثاني، ٢٠٠٣م، ص٧. أثناسيو، سورية، مج٣، ص١٣. رحاحلة (إبراهيم): النقود ودور الضرب في الإسلام في القرنين الأولين (١٣٢- ٣٦٥هـ / ٧٤٩-٩٧٥م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٧.

٥ ـ الحلاق، تعريب النقود، ص٢٦. الطراونة (خلف وآخرون): مسكوكات العالمين القديم والإسلامي، ١٩٩١م، ص٤٧.

٦ ـ الخولي (محمد عبد الرحمن): سك النقود في مدينة حمص إبان العهد الأموي، مجلة

مراحل تطور النقد في حمص

المرحلة	ميزاتها	المصادر والمراجع
الأولى أ ـ وهي ذات مأثورات يونانية وعربية ويرجح تاريخها إلى عام ٣٠هـ / ٦٥٠م.	في الوجه صورة هرقل محاطاً بالزخارف المتنوعة من مسيحية وبيزنطية وإسلامية، حيث يمكن أن نميز كلمة KMON اليونانية التي تعني جيد، وكذلك وجدت أحياناً البسملة المختصرة بالعربية" بسم الله". وفي الخلف يبدو حرف M الذي يعني انه يساوي ٤٠ نمية وهي أصغر وحدة نقدية ذات قيمة في النقود البيزنطية، وإلى اليسار من الحرف EMH وإلى اليمين EIE التي تعني بجملتها اسم مدينة حمص اليونانية، وتحت حرف M يتوضع خط تليه كلمة طيب	الخولي، سك النقود، ص٢٨
ب.	الفئة الثانية: تميز هذه الفئة صورة نصفية للإمبر اطور البيزنطي، (كونستانس الثاني) متوجهاً نحو الأمام وعلى رأسه تاج مرصع يعلوه صليب، ويرتدي بزة إمبر اطورية ودرعاً في يده اليمنى يحمل كرة يعلوها صليب، وفي الحقلين الأيسر والأيمن على جانبي الصورة كتابات يونانية مبعثرة، وعربية، أما خلف النقد فيشغل مركزه حرف m الموصول فوقه شارات وإلى يمينه ويساره أحرف يونانية ،وتحته كتابة عربية.	الخولي، سك النقود، ص٢٨
ج.	الفئة الثالثة تمثل نهاية مرحلة حفلت باختلافات كثيرة في موضوع السك وما اعتراه من تفاصيل	الخولي، سك النقود، ص٢٨

التجارة والصناعة، العدد الخامس عشر، آذار، ١٩٩٧م، ص٢٨ . الخولي (محمد): السكة في مدينة حمص إبان العهد الأموي، مجلة البحث التاريخي، تصدرها الجمعية التاريخية بحمص، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، العدد٥، ١٩٩٠م، ص٤٥ ـ٨٤.

	تعبر عن عدم الاستقرار الذي نجم عن الاضطرابات الداخلية المتمثلة بالصراع مع الخوارج وآل الزبير، وآل البيت، والخارجية المتمثلة بالحروب مع الروم، وقد اقترنت هذه الفئة بنماذجها المختلفة بعهد الخليفة عبد الملك بن مروان كما حملت اسمه ولقبه ويرجح باحثو النميات بأنها بدأت في حوالي عام ٧٢هـ /٦٩١م واستمرت حتى عام ٧٧هـ /٦٩٦م، ويحتوي المتحف العربي بدمشق مجموعة هامة من نماذج هذه الفئة بعضها خاص بمدينة حمص.	
الثانية	تخص هذه المرحلة النقود المعربة بشكل تام التي سكت في مدينة حمص، حيث وجد قرابة ٢١ نموذجاً من هذه النقود يحتوي بعضها أسماء أعلام أشهرهم مروان بن بشير الذي ظهر اسمه على عدة نماذج أشهرها ذلك النموذج الذي يحمل صورة اليربوع ناهيك عن نماذج أخرى مزدانة بزخارف نباتية وحيوانية ونماذج مقلة لنماذج شهيرة اشتهرت بها مدن أخرى كدمشق، وأخيراً نماذج مهمة مؤرخة، ويبدو أنها ضربت في سنة ١١٦هـ /٧٣٤م وكتب عليها في الوجه وسط لا إله إلا الله المحيط، ضرب سنة ست عشرة ومائة، أم الظهر ففي الوسط محمد رسول الله، والمحيط بسم الله، ضرب هذا الفلس بحمص.	الخولي، سك النقود، ص٢٩ــ٣٠. رحاحلة، النقود ص٨٦.

وبذلك فقد أثبتت التنقيبات الأثرية وجود دار لسك النقد في حمص قبل الإسلام واستمرارها بعده، وربما أن ولاية خالد بن يزيد على حمص هي التي جعلته يتفقد أحوال تلك الدار، ويراقب أعمالها، ويقارن ذلك مع ما قرأه من معارف ومن ثم تقديم النصيحة لعبد الملك بن مروان، ويؤيد ذلك أن قرار الخليفة بتعريب النقد لا يتم بسرعة، وإنما يحتاج إلى إعداد طاقم إداري صناعي لسك العملة، وأن هذا الطاقم كان موجوداً واستمر بعمله مع إحداث تغييرات في الكتابة على النقد.

وتجدر الإشارة إلى عدم ذكر المصادر المعاصرة لحقبة الدراسة إلى وجود دار لسك النقد في حمص، وهذا ما لا يتوافق مع التنقيبات الأثرية، فربما أن الدار كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي، وأنها في وقت من الأوقات قد تهدمت وبقي جزء بسيط من آثارها.

وفي حمص ساد استخدام الدرهم، وكان يزن ستين حبة شعير، وحبة الشعير تعادل ٠,٠٥ غم، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً وكان القيراط ٣,٥ شعيرات[1].

كما أن حركة تعريب النقد كانت ضمن إصلاحات عبد الملك المتمثلة في تعريب الدواوين ولغة كتابتها وكذلك الأوزان والمكاييل. وقد شاع في حمص استخدام عدد من الأوزان والمكاييل.

المشاكل التي واجهت الحياة الاقتصادية في حمص

وقد واجهت الحياة الاقتصادية في حمص عدة مشاكل أثرت تأثيراً سلبياً على الإنتاج الزراعي والصناعي.

ولعل العوامل الطبيعية أبرز تلك المشاكل، فالزلازل والأوبئة كالطاعون، وسنوات القحط والجفاف من العوامل التي أثرت سلباً على قدرة الفلاح والصانع الإنتاجية، بالإضافة إلى وفاة أعداد كبيرة من هؤلاء بسبب تلك الأمراض.

كما أن هناك مشاكل اجتماعية ناتجة عن هجمات أعراب البادية التي كانت تظهر في ظل انعدام الأمن لنهب أسواق حمص، وقد يتعدى ذلك إلى سرقة المنازل والأمتعة والمواشي، وكل ما يصادفونه، الأمر الذي أثر تأثيراً سلبياً على السكان المقيمين في حمص، وقل إنتاجهم الزراعي والصناعي بسبب تلك الهجمات. بالإضافة إلى الأسباب السياسية التي أثرت بشكل كبير فسكان حمص عندما يشاركون في قمع أية حركة أو ثورة يحدثون أضراراً اقتصادية كبيرة، وذلك من خلال تركهم لأراضيهم والتحاقهم بالجندية.

لقد كان الإنتاج الزراعي يمثل المصدر الرئيسي للاقتصاد في عصوره التاريخية

---

١ - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٢.

المختلفة، ولذلك فإن الدولة المركزية المتمثلة في فئة الحكام والجهاز الإداري، كانت تتولى المهام الاقتصادية المرتبطة بالزراعة، كإقامة الجسور وحفر الترع وصيانتها، مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج ومن ثم الحصول على عائد أكبر من الخراج والضرائب، كما أن إهمال العناية بهذه المشروعات يعني انخفاض معدلات الإنتاج الزراعي وبالتالي ظهور الكثير من المجاعات والأوبئة، ولم تكن هذه المجاعات تؤدي إلى آثار سلبية على القرى فقط، وإنما امتدت آثارها إلى دمشق، العاصمة المركزية أيضاً.

obeikandl.com